



لعل ما بين الحرية والأئمة من وشائج وثيقة وعلاقة وطيدة ما يجعلهما تؤمنان فاسما الحرية هو اسم أنثوي في اشتقاده ومن حيث عداء الجاهلية للأئمة وعداء الطغاة للحرية تشابه كبير في شدة الكراهية التي تكنها صدورهم لجمال الحرية والأئمة بكل ما تحمله من معانٍ ذلك أنهم لا يعرفون من معنى الأئمة إلا العار ولا يعرفون من معنى الحرية إلا أن يتساوى الأسياد مع العبيد .

إن من أضل المضلال أن تقيم الدلائل والبراهين على الحقائق التي تشرق في سماء الفطرة، يستشعرها الإنسان السليم، ولكن ما تستطيع إثباتها ببراهين ملموسة، لمن يريدون رؤية المعاني المجردة جهرة، ولا غرابة أن يتنكر لها من فسدت إنسانيته وتبدلت أذواقه، وانحرفت فطرته، فقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد هي كذلك الحرية، تسakan القلب، وتهفو لها النفس، كحنين المفترب للأوطان، وتهيم له نفوس الأحرار، كهيام العيس التي شفّها الظماء لمورد الماء العذب.

الحرية كالحب، لا يستطيع أن يصف المحب ما يعتريه من حرّ النوى رغم ما يعانيه وما يكابده من برحاء الشوق وألم الهرج. أما الخانعون الفاقدون لهذه الحرقة الملتهبة من عبود القيد والسوط، دائماً ما يسُوغونَ تخلفهم عن ركوب سفينه الثورة، لأنهم لا يعرفون معنى الرسو على شواطئ الحرية.

وهم راضيون يستعبدون الذلّ والهوان، ويضربون مثل السوء بحرية الانحلال والفوضى، ويأتون بباب الجبن متعلّلين بالقيم والأخلاق، نوع من تسويع خدمة الطاغية. ومع كلّ مغالطاتهم فلسنا ملزمين بتبيّان معنى الحرية التي نريد، فإن للحرية معنى في فطرة الإنسان لا يدركه إلا الأحرار.

فمن أين لمن ألف أن يعلف في قفصه، ويُقصَّ جناحه، ويحرِّم التحليق، أن يستشعر لذة التحليق فوق القمم؟! وهذا تأتي العلاقة الجدلية بين الثورة والحرية، في شق طريق الحياة، والانتفاض من الجدث، وكأن إسرافيل ينفح فيها روحًا جديدة يوم بعثها، وقد ظن الطغاة أنها لا تعود للحياة أبداً، كيف وقد وسدوها في الترب، وهي تنبع بالحياة كأنها الموعودة. ولم يدر أولئك الطغاة أن الحرية هي فطرة الحرّ التي لا تطيق مقاماً، وهي تألف السير دائبة كالنسيم، لتحيي كل أشجار البستان، التي خامرها الذبول، وأصفرت أوراقها من عطش الحرية والكرامة، وقد شخذ الحطاب فأسه ليحزمها حطباً للتثور، فإذا بنسمة الحرية الرقيقة تهب على البستان، فتحييه ربيعاً من جديد، لتعود خضراء ممربعة. ومنا هنا تبدأ قصة التلازم بين طريق الثورة وغاية الحرية.

لكن الثورة التي لا ترفع قيمة أخلاقية جاذبة لعاطفة الجماهير، تمحور حولها، وترى في هذه القيمة خلاصها، وفك أغلالها، وتمزيق قضبان سجنها، وكسر سوط جلادها، ترى فيها الحياة من فوهه الموت، وترى طريقها الأحمر بساطاً سندسياً، توشّى بالزهور، و تسترخص كل نفيس، في سبيل بلوغ ذراها، واعتلاء رباه، لن تكون بحال الخيط الناظم لعقد الشعب التأثير، وقطع الخيط بخيوط الأدلة الخاصة هو فرط لعقد الحراك الثوري.

واسعة أن تحول الثورة إلى أيديولوجيات خاصة، فإنها تفقد معنى الثورة، لتحول إلى معركة خصوصية، لا شأن لعموم الشعب بها، سواء انتصرت أم انهزمت، هو لا يعنيها شيء كما كان جواب عنترة لسيده لما استثار في نفسه النخوة ليذبّ عن عرض قبيلته!

القبيلة التي ضنت عليه بأعزّ ما يهفو له الإنسان، (حرّيتها المسلوبة)، لماذا يذبّ عنها إن انهزمت؟ فلن يزيد الغزاوة على استرقاقه.

وإن انتصرت، فهو من عداد الرقيق، لن يتغيّر في حياته شيء.

فهو على الحالين في عداد العبيد والهمل.

فما كان جوابه لسيده (لم تخلق العبيد للكرّ، ولكن للحلابة والصرّ)، عندها فهم سيده: أنّ ما من شيء يفجر طاقة الشجعان، مثل تكسير قيد العبودية، وتنسم عبر الحرية، ليتحول من نسر عجوز، إلى باز جارح.

فقال له: كرّ وأنت حرّ، عندها قام ليدفع عن حرّيتها في صورة تلك القبيلة.

لذلك كان من شأن الأيديولوجيا الضيقة أن تجعل من الثورة صراعاً بين مستبددين: أحدهم يحمل قيداً أسوداً، والآخر يحمل قيداً أبيض، تناحر لهم جيوش من العبيد، بحسب لون القيد الذي يفضلون، وبحسب الطعام الذي يقدمونه، وبحسب الجlad الذي يفضلونه، لأنّ مشكلتهم مع الظلم تحلّ إن استبدل قيد الحديد بقيد من ذهب.

والانحياز لأيّ منها هو انحياز عن طريق الثورة، وشروع عن غاية الحرية، والدخول في حظيرة جديدة، مخافة خفق العصا، وطمعاً بنقر الحب المنشور على فتح العبودية.

فيلهو بقوت الذل عن ذوق ما ذاقه الخليل عليه السلام وهو يصطلي بنار التمود، وما ذاقه يوسف عليه السلام وهو يقضى في السجن بضع سنين، وما عاينه موسى عليه السلام وهو يضرب بعصاها البحر ويفر من فرعون خائفاً يترقب، وما تنسمه محمد صلى الله عليه وسلم وهو في الغار مهاجرًا،

ومنهم الواقفون في منتصف الطريق، ما استطاعوا مضيّا ولا يرجعون.

أقول: ويل لهؤلاء المساجين في منتصف طريق الحرية، التائهيون على دروب بركان ثورتها،

يررون سياط الجlad من ورائهم، فتحدوهم إلى الأمام، ويررون ثمن الحرية الباهظ من أمامهم، فيحجموا إلى الخلف، لم يحسموا خيارهم، ولم يتذدوا قرارهم.

ولأن الحرية لا تقبل الاحتقار، إلا عند من يحملون نفسية العبيد..

سنرتقي في طموحنا لنبلغ غايتها في تحرير جلادنا من عبوديته لأدوات الاستعباد، فما من شيء أشقي على الحرّ من أن يعيش بين مجتمع من العبيد، وما من شيء أسعد لقلب الحرّ من أن يكون حرّاً بين أحرار. حينها تستحق الحرّية بجدارة، ونكون مشعلها الملهم، ونورها المشع، يمزق سجوف الطغاة، ليوقظ تلك الرؤوس التي ثقل نومها تحت نير العبودية، وطال ليل الظلم وهي ترمي فجر الحرّية الجديد، فلا تجد له من آخر، وهو أقرب إليها من حبل الوريد.

وما بينهم وبين أن تنبت شجرتها و يستظلوا بوارف ظلالها إلا أن يروا جذورها من دماء وريدهم، ولا نصدق وهم الذي ينتظر من الذين صنعوا السجن على أعينهم، أن يتعطفوا على السجين بمفاتيح القيد لينال حرّيته. التاريخ يذكر أنَّ القيود تكسر ولا تفتح، وأنَّ الحرّية تؤخذ عنوة ولا تعطى عن طيب نفس. ولكن السؤال الصعب الذي يتربّد دائماً: ماذا سنصنع بعد أن نتحرّر؟.

لماذا نبحث عن طاغية جديد لنؤدي له طقوس العبودية التي تربينا على ممارستها، أم أنّا سننفض عن كواهلنا كلَّ ما علق بنا من رزايا الخضوع والاستبداد لأدوات القهر وعنت السنين؟!.

لماذا نبحث عن صنم جديد بعد أن كسرنا أصنام المعبد؛ هل ستذهبنا نار النمرود فنعود لحظيرة الظفيان لункف على أصنامها؟.

لماذا نعتذر من فرعون قبل أن نصلب في جذوع النخل!

لماذا يرعبنا منظر الأخدود ونعود إلى دين الملك!

هل سنصل إلى تسوية مذلة مع أبي جهل فنعبد ربّه عاماً ويعبد ربنا عاماً؟

هل سنتنتح طاغوتاً يحمل سوطاً مكتوباً عليه: باسم الله، بدلاً من السوط الذي كان يكتب عليه: باسم الشعب؟

هل سنعمد إلى وأد ثورتنا بأيدينا كعربون مصالحة مع الجزار الجديد، فننحر ثورتنا قبل أن ينحرنا؟

ربما يكون ذلك عندما تتجسد القيمة السلبية بفرد عارض، ف تكون ثورتنا على المستبد، وليس على الاستبداد، وعلى الظالم وليس على الظلم، وعلى الصنم، وليس على الصنمية.

حساب الكاتب على تويتر

المصادر: